مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 8 / العدد: 01 (2020)، ص ..-- ..

الإنسان السائل: نحو أنطولوجيا رقمية سائلة عند "زيجمونت باومان".

The Liquid Man: Toward a Liquid Digital Ontology in Zygmunt Bauman.

حجاج خليل [1]، جدراوي عفاف[2]

[1] جامعة ابن خلدون تيارت (الجزائر)، khalil.hadjadj@univ-tiaret.dz

[2] جامعة الحاج لخضر باتنة (الجزائر)، afaf.djedraoui@yahoo.com

تاريخ الاستلام: ../../2020 تاريخ القبول: ../../2020 تاريخ النشر: ../../2020

ملخص: (150 كلمة **على الأكثر**)

إن التطور التقنو-علمي الهائل الذي شهده العالم المعاصر اليوم، إنما يوحي بانتصار العقلانية التقنية وهيمنة التكنولوجيا الرقمية على كافة مجالات الحياة الإنسانية، مما يعني استحواذ الذكاء الاصطناعي وفرض سيطرته على الذات الفردية، الأمر الذي قاد العالم نحو مزيد من السرعة والسيولة الرقمية، فنتج عن ذلك بروز "إنسان سائل" بلغة عالم الاجتماع المعاصر "زيجمونت باومان" منسلخ من كل المرجعيات الثابتة والصلبة التي كانت فيما مضى تحدد أطره وتتحكم في قيمه، وبالتالي فطغيان التقنية على الإنسان جعلته يدخل الكوخ الالكتروني الرقمي السائل، وهذا ما انعكس سلبيا على سيكولوجيته فغير من طبيعة تفكيره اتجاه نفسه والعالم من حوله، أين أصبح معيار السرعة هو المقياس الأمثل في وجود العالم الرقمي ومنه نتساءل: كيف أثرت العقلانية الرقمية على مسار الإنسانية؟ وما هي انعكاساتها على الإنسان في حد ذاته؟

كلمات مفتاحية: الإنسان السائل؛ العالم الرقمي؛ التقنية؛ العقلانية الرقمية.

Abstract: (Do not exceed 150 words)

The tremendoustechnical-scientificdevelopmentthat the contemporary world witnessedtodaysuggests the victory of technicalrationality and the domination of digital technology over all areas of human life, whichmeans the acquisition of artificial intelligence and imposingits control over the individual self, whichled the world towards more speed and digital liquidity. This is the emergence of a "liquidhumanbeing" in the language of

thecontemporarysociologist "ZygmuntBauman", sloughed off from all the fixed and solidreferencesthat in the pastweredefininghisframeworks and controllinghis values, and thus the tyranny of technology over the humanbeing made him enter the liquid digital electronichut, and thiswasnegativelyreflected on hispsychology. The nature of histhinkingtowardshimself and the world aroundhim, wheredid the speed criterionbecome the optimal scale in the existence of the digital world, and fromitwewonder: How has digital rationalityaffected the path of humanity? What are itsrepercussions on the human in itself?

Keywords: Liquid man; Digital world; Technology; Digital rationalit

المؤلف المرسل: حجاج خليل،

1. مقدمة:

إن ميلاد فكرة ما بعد الحداثة في نظر الكثير من المؤرخين والفلاسفة هو اعلان عن موت أسطورة الحداثة وأفول السرديات الكبرى بلغة فرانسوا ليوطار، وبالتالي رفض للقيم التنويرية، وكل ما يدعو لفكرة المركز والأساس، ومن هنا تكون ما بعد الحداثة أو بمصطلح عالم الاجتماع البولندي زيجمونت باومان هي دعوة للتشكيك والتفكيك واللانسجام، وانفتاح في المقابل لفكر الاختلاف والتنوع.

ولما كان كذلك، فإن فكر ما بعد الحداثة هو فكر معاد للكليات والمطلقات وكل ما هو ثابت يقيني، وهذا يعني أنه يحاول الهروب من كل المرجعيات الصلبة، ليرتمي في عالم الصيرورة واللايقين، فهو تعبير عن عالم ديناميكي سائل لا يكف عن التغير، بحيث يكون هذا الأخير(التغير) هو الثابت الوحيد على حد تعبير باومان.

وقد تضاعفت حدة هذا التغير بفعل هيمنة التقدم العلمي التكنولوجي المعلوماتي ناهيك عن ثورة الذكاء الاصطناعي، وبالتالي سيادة العقلانية الرقمية على كافة مجالات الحياة الإنسانية، الأمر الذي دفع بالإنسان المعاصر إلى دخول الكوخ الإكتروني الرقمي السائل، بحيث تكون السرعة هي المعيار الأمثل والأريحية هي الملاذ الأخير،وما هذا ما أدى إلى بروز إنسان مرن سائل بلغة زيجمونت باومان متجرد من كل المعايير والثوابت المطلقة،ويلقي السمع في المقابل لمنطق اللذة والاشباع الفوري. وهنا مثار الإشكالية: كيف أثرت العقلانية الرقمية على مسار الإنسانية؟ وما هي انعكاساتها على الإنسان في حد ذاته؟

2. العقلانية الرقمية وأثرها على سيكولوجية الإنسان المعاصر:

إن التحولات التي طرأت على الحياة المعاصرة توحي بانتصار العقلانية الرقمية أو العقلانية التقنو-علمية، التي حولت كل شيء إلى سلعة استهلاكية تنتهى بانتهاء صلاحيتها ونفعها وهذا ما أثر سلبًا على سيكولوجية إنسان ما بعد الحداثة، وجعلته مجرد ترس في آلة ماكنة ضخمة، ويجرى التحكم فيه بإقاعها الخاص ومطالبها الخاصة، وثم تحول الإنسان إلى مستهلك شامل كما يقول "إريك فروم" **Erich Fromm 1900-1980**) همّه الأساسي والوحيد هو أن "يملك المزيد وأن (يستخدم)أكثر (...) والإنسان باعتباره ترسًا في ماكنية الإنتاج يصبح شيئا (ايريك فروم, ثورة الامل نحو تكنولوجيا مؤنسة ,2010,ص70).

فالعيش في كنف الآلية يخفى في ذاته مآمرة العقل التقني، الذي يحاصر الإنسان من كل الجوانب، ويسلب منه إنسانيته، ويكرس لنوع من "العبودية الطوعية" التي تسمح "بإخضاع البشر لمنطق حتمي وميكانيكي، ومتخصص و"كرونوميتري للآلية الصناعية إنها تفرض في قطاعات من الحياة الإنسانية ويزداد اتساعها (إدغار موران: نحو سياسة حضارية، 2010، ص12)

فتوسع التقنية وتربعها على الساحة الإنسانية، أدي إلى طمس جوهر الإنسان وردم الجانب الروحي فيه مما يخلق حالة مرضية للمجتمع المعاصر، نتيجة خضوع الإنسانية لصنم ووثن التقنية مما أدى إلى تشظي المعنى وموته وهنا يرى " زيجمونت باومان"(**zygmuntBuman 1925-2017**)في حوار أجري معه حول موضوع "التقنية " وأثرها في المجتمعات المعاصرة،أكد أن هنالك تغير جذري في منظومة العيش المشترك، وفي الظروف التي تُدار فيها سياسة الحياة هذه الأيام،لأن التطور التقني بات ينطوي على ما هو أكثر من مفهوم التغير والسبب في ذلك كما يراه في سوء توظيفنا للتقنية يقول: لم نعد نوظف التقنية في سبيل إيجاد وسائل مناسبة تقود لتحقيق غايتنا،بل صرنا –وعلى العكس من قبل–نسمح لغاياتنا بأن تحددها الوسائل التقنية المتاحة،أي –بكلمات أخرى–ما عُدنا نطور التقنية بقصد إنجاز ما ينبغي إنجازه،بل صرنا ننجز ما تتيح لنا التقنية الحاضرة إنجازه.(زيجمونت باومان.لقاءالعدد.2017.ص61)

وفي تقدير الكثير فإن التقنية اليوم لم تعد تستخدم لخدمة الإنسان بل أصبح الانسان في خدمة التقنية فانقلبت الجدلية الهيغلية "العبد والسيد" رأسا على عقب، مما غير من طبيعة العلاقة بين الإنسان وذاته فشيئت الذات وأحكم عليها القفص الحديدي بتعبير ماكس فيبر واغتربت في عالم الصناعة يقول "ماكس هوركهيمرو(**Max Horkheimer 1895-1973**) تيودور أدرنو **Theodor Adorno1903-1969**)في كتابها المشترك جدل التنوير: لقد أعطيت الإحيائية روحًا للشيء، أما الانتماء للصناعة فقد حول روح الإنسان إلى شيء. (ماكس هوركهيمروتيودور ادورنو.جدل التنوير.2006.ص48.)

والأخطر من ذلك، أن التطورات التقنية أثرت بشكل ملحوظ على مسار عيشنا، لذلك كانت نتائجها تحت مشرحة النقد دوما، فإذا كانت الابتكارات التقنية كما يرى تُكيف لخدمة الحياة اليومية للمجتمع، فإنها اليوم تكرس لخدمة الأنظمة والتوجهات الشمولية، فهي تشكل مصدر تهديد للوجود البشري يقول: إن التغيرات التي تأتي بها التقنية في أيامنا، هذه غدت تؤثر في أفراد المجتمع، كما باتت توفر امكانية نشوء بعض التوجهات الشمولية: أطلق أحد الأثرياء الأوليغاركيين الروس (ديمتري ابتسكوف)، مشروعه المسمى (المبادرة 2045) التي ترمي لجعل الدماغ البشري شيئا يمكن الاستغناء عنه!! (زيجمونت باومان.قوة الكلمات.2017.ص25).

فلا تكتفي قوة التكنولوجيا في تحول العالم والإنسان إلى مجرد مادة استعمالية، بل تتجاوز الإنسان وتحل محله الآلة، وعليه فإن النظام التكنولوجي الجديد يعمل على القضاء على العقل البشري، وجعله في مأزق داخل ما يعيشه، وهذا ما أثبته "يورغنهابرماس"(.**Habermas 1929**) في دراسة له حول موضوع التقنية والعلم يقول: إن قوة المحرر للتكنولوجيا تحول الأشياء إلى أدوات تنقلب إلى قيد على التحرر وتحول الإنسان إلى أداة. (يورغان هابرماس.العلم والتقنية كايديولوجيا.2003.ص05).

ومن هذا المنطلق يُدِينُ "باومان" العقل الغربي، ويوجه له سهام النقد كونه حوسل العالم بمصطلح "عبد الوهاب المسيري"، وجعل الذات تتخبط في درج الآداتية، وخاصة لما أدى به الأمر إلى طمس البعد الروحي للأنا، وتفكيك علاقاتها الاجتماعية، واستبدل معاني النفس السامية المفعمة بالقداسة والسمو،

وجعلها تَنْضم إلى عالم النفايات الذي يحكمه منطق الاستهلاك، واللذة الفورية، وبهذا نتصور العالم بأسره بما في ذلك البشر الذين يسكنونه مجموعة من السلع الاستهلاكية. (زيجمونت باومان.الحداثة السائلة.2016.ص235).

وتجدر الإشارة هنا إلى نقطة جد حساسة، ألا وهي أن فهم سيولة الإنسان المعاصر لا تنفك عن فهم مسار العقلانية الرقمية؛ لأن هذه الأخيرة كان لها أثر قوي في تغيير رؤية الذات لنفسها أولا والعالم الإنساني من جهة أخرى، بحيث أصبحت تتعاطى مع كل شيء تعاطي سلعي استهلاكي آلي خال من أي كل معنى القداسة وبهذا فلا نستغرب كما ترى "هبة رؤف عزت في مقدمة كتاب الحب السائل **Liquid Love**) (لزيجمونت باومان ظهور سوق رائجة للروبوت الجاري والذي يعني الاستغناء الكامل لكل لأي علاقة إنسانية، وبالتالي فإن إنسان الألفية الثالثة سيكون قادرا على أن يعيش من أي احتياج إلى علاقة إنسانية من أي نوع ،لأن الآلة هي التي ستصله بالعالم وهي التي ستدير معاملاته المالية،وهي التي سيقوم من خلالها بأداء مهمته في الماكينية الكبير للعمل الذي يعمل به، وختما سينتهي في نهاية اليوم في فراش تحقق الآلة له فيه المتعة القصوى (المتخيلة) من دون أية توابع. (زيجمونت باومان .الحب السائل .2016.ص23).

وهذا هو الإنسان السائل الذي يتكئ على الذكاء الاصطناعي في تسير كل أموره مما يعني أنه إنسان مكتف بذاته متنصل من كل المرجعيات والثوابت المطلقة، فهمه الوحيد والأساسي هو تحقيق اللذة دون أية توابع أو تضحيات تؤرق نفسه وترهق جسده، فهو عصر أنطولوجيا الرقمنة السائلة، والذي ما كان له أن يظهر إلا بعد الثورة الرقميةالتي كانت بمثابة المعجزة، وبالتالي فمع الظاهرة الرقمية لم تكن الفعالية هي ما كسبناه فحسب، بل كسبنا المرونة والهناء والخفة. (ستيفيان فيال .الكينونة والشاشة .20180ص218).ما هو إلا نتيجة حتمية للتطور التكنولوجي الهائل، والذي يرمى بالإنسان في عالم الرقمنة أين تتمثل فيه اللاواقعية وتتراجع فيه أقانيم الواقع، وتتآكل كل معانيه فيفقد بذلك دلالته كما يقول بودريار **Jean Baudrillard 1929–2007**) (: وهكذا ضاع مبدأ الواقع في متاهة المصطنعات (الصور) اللامتناهية المتخيلة والوهمية التي تروجها الميديا وبذلك يفقد الواقع وجوده ويصبح تلك النسخ المصطنعة رقميا عبر أجهزة

الكومبيوتر، عليه فإننا نعيش في عالم "فوق الواقع"، وهو العالم التكنولوجي الافتراضي. (جان بودريار.المصطلح والاصطناع .2018. ص18).

فهذا العالم الرقمي أصبح يستوعبنا كما يرى بيير ليفي صاحب كتاب عالمنا الافتراضي: ما هو؟ وما علاقته بالواقع؟ في كل شيء أجسادنا وذكاؤنا ورسائلنا ونصوصنا وما نمتلك ونتبادل، كل هذا مسه اليوم، فهذه الحركة السريعة والمعولمة مست طرقنا في أن نكون معا، إذ أصبح بالإمكان أن نكون مجموعة افتراضية أوأصدقاءافتراضيين أو مؤسسة افتراضية أو ديمقراطية افتراضية وغيرها فالعالم الافتراضي يمكننا من الحصول على كل شيء بأقل تكلفة، فإذا كان الواقع يفترض إنجازا ماديا ووجودا ملموسا، وينضوي الواقعي تحت معنى أنا أمسك به فإن الافتراضي ينضوي تحت معنى ستحصل عليه. (بيير لييفي.عالمنا الافتراضي ماهو.2018.ص15).

وكل هذا يؤكد أن وجود الكينونة هي وجود في رحم الرقمية، لأن العتاد الرقمي السائد في زماننا هو الوسيلة الوحيدة التي تدخلنا في رحم الرقمية، وبهذا فإن مولود العصر الرقمي يعني اكتسابك ملكة رؤية ظهور العالم وأنت مجهز رقميا. أن تكون مولود العصر الرقمي يعني أنك ولدت بفعل الرقمي. لأن المجيء إلى العالم لا يكفي من أجل الولادة في العالم، وحدها الأشياء التقنية المحيطة بنا ما يسمح لنا بهذه الولادة في العالم (..) الكينونة، هي إذ الولادة مع التقنية هي الولادة تقنيّا. (ستيفيان فيال .الكينونة.ص135).

فالتطور السريع لوسائل التكنولوجيا جعل العالم بين أيدينا نرى تفاصيله ونعيش داخله من خلال ما تظهره الشاشات بين أيدينا، وهذا ما نعكس على سيكولوجيتنا فاخترقت الرقمية مشاعرنا اختزلت في رسالة نصية تنشر على مواقع التواصل الاجتماعي الفيس بوك ،استغرام ، توتر وغيرها، وهذا ما غير الكثير من المفاهيم الكلاسيكية الصلبة، لتصبح مع عصر الرقمية مفاهيم سائلة مرنة سطحية وفي كثير من الأحيان ساذجة فمثلا لم نعد نطهو الطعام لنشعر بلذته ونستمتع بنكهته، بل صرنا نطهوه لنأخذ له صورة وننشرها على مواقع التواصل الاجتماعي، وننتظر كم ستسجل من اعجاب وتجني من عدد اللايكات، ثم كذلك أصبحنا نجتمع ليس بغية الشعور بدفيء وحرارة الاجتماع، بل بالتقاط أحسن اللحظات الجميلة ثم نشرها، وكل هذا يشعرنا بالبهجة و السرور ولكن في المقابل يعبر عن الوهم الزائف، والتضليل والتيه بكل أبعاده.

وهذا ما أكدته صاحبة كتاب" أنا أوسيلفي إذن أنا موجود"إلزاغودار حيث أظهرت عمق التضليل والوهم الناتج عن استخدامنا للمواقع الرقمية، فهده الأخير تعمل على تنميط مشاعرنا وأحاسيسناوالقضاء على تفكيرنا وبالتالي لم يعد معنى الكوجيطو الديكارتي أنا أفكر أذن أنا موجود" فقد تغير الزمن ولم يعد للتفكير ووجود الذات الواعية أية قيمة في زمن الاستعمال والتشيء، بل اننا في زمن الاستهلاك الذي لا يشبع أبدا ومنه فأحسن توصيف يليق بعصرنا هو "أنا التقط صورا ذاتية،إذن أنا موجود" فمن كثرة ما نقدم أنفسنا صرنا صورا لأن وجودنا مع السلفي لا يحل إلى جوهرنا بل يحيل في الأثيل إلى الصورة. (الزا غودار.تحولات الانا في العصر الافتراضي .2019.ص83).وهنا قمة التشيؤ الإنساني.

3. العلاقات الافتراضية والكوخ الإكتروني:

فعلى عكس العلاقات الحقيقية المبنية على الالتزامات طويلة المدى، والقائمة على أساس الوجه؛ الذي يعد علامة التواصل المباشر بين الأنا والغير، فإنه العلاقات الافتراضية تبدو أكثر توافقا مع البنية الحديثة السائلة، والتي تتوعد بإشباع أفضل ورضاء أكبر دون بذل أي مجهول لإنجاحها فالعلاقات الافتراضية، على العكس من العلاقات الواقعية يستحيل الدخول والخروج منها، فهي تبدو أنيقة ونظيفة، ومألوفة، وسهلة الاستخدام مقارنة بالعلاقات الواقعية الصامدة الثقيلة. (زيجمونتباومان: الحب السائل: ، ص 32). فالافتراضية تتجاوز كل ما هو ثقيل يعيق الذات ومنه فهي تمثل الحرية في تمامها لأنها تنضوي تحت معنى "ستحصل عليه.(بيير ليفي: عالمنا الافتراضيّ: ما هو؟ وما علاقته بالواقع؟،ص 15).

وبهذا فقد العالم الإنساني حسه العاطفي، لأن لم يعد هنالك مكان لتلك المشاعر الجياشة والمترجمة على مستوى الكلمات، لأن هذه الأخيرة لم تعد حضنا للانفعال الذي يلتقطه الوجدان ويعيد صياغته حسب حالات الذات لقد حل محل كل ذلك مجموع من "السمايلات" المنتشرة في الحواسيب والهواتف المحمولة ما يطلق عليه الشباب اليوم الإيموجي" **emoji**، وهي كلمة مستعارة من اللغة اليابانية، وتدل على ما يكتب بالصور (إلزاغودار: تحولات الأنا في العصر الافتراضي ، ص 15). وهذا يعني أن الكلمة أُختصرت في الصورة وهي المهيمنة في المجتمعات الاستهلاكية.

الأمر الذي أثر على العلاقات البشرية وأدى إلى سيولتهاوقضى على كل المعاني الروحية، وهدمت كل إحالة إلى الأصل أو إلى نزعة تاريخية متجاوزة (متعالية)، مما أدى ذلك إلى زوال الإنسان وموته في الخطاب المعاصر، واندثار أسطورته كما أعلن عن ذلك "ميشال فوكو" في كتابه العمدة "الكلمات والأشياء" يمكن الرهان أن الإنسان سوف يندثر، مثل وجه من الرمل مرسوم على حد البحر.(ميشال فوكو: الكلمات والأشياء،1990، ص 313).

فأفول الإنسان واندثاره حسب فوكو إنّما يعني به موت هذا الكائن الواعي، الطموح والمسؤول والفاعل في تاريخه ...والذي شكلته المنظومة الحداثة الغربية، فقد كان مجرد اختراع وحدث معرفي موقت وأنه سيزول بمجرد تشظي المشروع الأنواري، وتصدع ثقافة الحداثية الغربية إن كل هذا التشكيل سوف ينقلب الآن، وأن الإنسان هو في طريقه إلى الزوال.(ميشال فوكو: الكلمات والأشياء،1990، ص 313).

فالتعايش مع هكذا علاقات يقتضي منا تعلم فن قيادة جديد في ظل الرمال المتحركة والذي أصبح فيه كل شيء يسير بوتيرة سريعة، والمهم فيها تحقيق المتعة الفورية، فبمقدور الفرد انهيارها، إذا لم يشعر بالرضا اتجاهها ويمنع الطرف الآخر من الوصول إليه وبهذا تكون الميزة الفارقة والحاسمة للعلاقات الالكترونية كما يرى باومان هي الحذف ويمكنك دائما أن تضغط "إمح**delete**" (زيجمونتباومان: العلاقات في زمن الاستهلاك، حياة بلا روابط، ، 2004، ص 16).

فالرقمنة على هذا النحو قد زودت الإنسانية بسرعة في التعامل عبر شبكات التواصل الاجتماعي، وغذت كهف العلاقات الالكترونية،وخففت عنه عبأ المسؤوليات،بالتالي صار إنسان الحداثة السائلة ذات حرة بلا روابط صلبة، ولكن يؤكد باومان أن وسائل التواصل الاجتماعي لها تأثير حاسما على ثقافة العصر الحديث فهي:كالفخ "يصطاد عواطفنا وبقايانا الهشة حيث تسود أنماط علاقات غير مستقرة بلا أعباء أو مسؤوليات،وأطياف أحاسيس تأتي اليوم وتنقضي غدًا.

وبهذا تكون المجتمعات على الأنترنيت بلا روابط متينة،لأنها تجمعات حسيه بعيدة كل البعد عن المتانة،ناهيك على كونها مؤقتة،ومن السهل الانضمام إليها وتركها في تلك اللحظة التي انضم إليها،وهذا في

حالة تعرض الشخص فيها للانزعاج أو المضايقات أو حالة كئيبة،ويشعر بعدم الشهية مما يُقدم في أقرب وقت أو في وقت لاحق بقطع العلاقة.(**ZygmuntBauman:Collateral Damage Social Inequalities in a Global Age, s, 2011, p 92.**)

فحقيقة ما توفره هذه المجتمعات من أريحية في التعامل، جعلت الإنسان يعتقد بأن الإله الجديد (الصنمية الالكترونية)،ستقدم له الجنة الموعودة في الأرض من خلال ما يقدمه من خدمات وسهولة في الاتصالات، وهذا ما يلاحظ على مستوى "الرسائل الفورية (غير الشفوية)–البريد الالكتروني– أو رسالة نصية أو شبكات التواصل الاجتماعي بصورة يومية للتواصل مع الأهل أو الأصدقاء. (سوزان غرينفيلد: تغير العقل، 2017، ص 150).

وهكذا يكتسي "التواصل" مدلولاً مغايرًا سمته الأساسية "السلعية"فمثلما يتسوق الفرد المستهلك في المعابد الاستهلاكية، ويتصفح المنتجات التسوقية،فيشتري ما يريد،فإنه يفعل الأمر ذاته على الأنترنيت "فيتسوق الشركاء على الأنترنيت، وهذا أشبه بتصفح كتالوغ تسويقي "من دون الزامك بالشراء"،وبضمان على الصفحة الأولى برد البضاعة المباعة حالة عدم الرضى عنها. (زيجمونتباومان، الحداثة السائلة، مصدر سابق، ص 104).

وفي تقدير التحليل فإن الإنسان صار سلعة في حد ذاته في يد العقلانية الرقمية، والتي تعمل على تسويقه من خلال تسليع الفرد المستهلك أو إعادة تسليعه في كل وقت ليرتفع إلى السلعة القابلة للبيع في الأسواق الالكترونية(العمل،الصداقة،الزواج ...)وهذا ماأكدت عليه "مارجرت تاتشر(1925/2013**Margaret Thatcher**)" في كتباتها أثناء ملاحظتها للمجتمعات الغربية أين انتهت قائلة باختصار:يجيب عليك أن تكون جيدًا، وحتى تكون جيدًا تحتاج إلى المال،للحصول على المال تحتاج لبيع نفسك بسعر جيد مع ربح لائق لا يمكنك أن تكون متسوقًا إلا إذا أصبحت أنت نفسك سلعة والناس على استعداد للشراء وما تحتاجه هو هوية جذابة يمكن بيعها.

(**ZygmuntBauman:Collateral Damage Social Inequalities in a Global Age., p79**)

وبهذا فقد تجاوز الاستهلاك معناه المقتصر على الملذات وإشباع الرغبات، إلى تسويق الذات ولهذا أكد في كتابه استهلاك الحياة **Consumer Life** بأن السلعة اخترقت كل شيء وأعادت تشكيل أبعاد الحياة الاجتماعية لدرجة أن الذاتية نفسها أصبحت سلعةيتم شراؤها وبيعها في السوق، وعليه صار أفراد المجتمعات الغربية المعاصرة مستهلكون وأصبح المجتمع فيه مندمجا مع نموذج المستهلك،وهو موضة العص(**ZygmuntBauman: Consuming Life,Cambridge: PolityPress, 2007, p 120.**)

4. مواقع التواصل الاجتماعي وموت الخصوصية:

إن االقفزة الكبرى التي أحدثها الإنسان في العلم والتكنلوجيا خاصة في العصر المعاصر أدى إلى تحوله إلى دمية في يد التقنية تتحكم فيه كيفما تشاء وتنزع منه البيانات الشخصية بطريقة آلية وهذا نوع من الشمولية الناعمة، قد اعتمدت على العقلانية الرقمية في السيطرة غير مباشرة على الإنسان.

فمواقع التواصل الاجتماعي كالفيسبوك وانستغرام وتويتر وغيرها حسب "باومان" وصديقه "ليونداس دونسكيس" تقوم أساسا على النزوع لتطبيق قيم الاستبداد الناعم، فهو عندما يتسلل بحذر تام على المستخدم يجسد ظاهرة "افعل الأمر بنفسك" عندما يدفع مستخدمه دفاعًا إلى فعل جميع الموبقات وهتك كل الأسرار بموجب ضغطهم على أزرار لوحة المفاتيح يقول ليونداس دونسكيس: "ظهر مع الفيسبوك إمكانيات الخطر القاتل والشر المميت، فالفيسبوك يجسد ظاهرة "افعل الأمر بنفسك "تجرد من ملا بسك،وأرنا أسرارك،وافعل ذلك بنفسك،وبارادتك الحرة وأسعد بما تفعل فعليك أن تفعلها بنفسك،وأنت تتعرى يا عزيزي (زيجمونت باومان وليونيداس دونسكيس: الشر السائل ، 2018، ص 32).

وبهذا يكون أحد أهم الأعراض المرتبطة بالشمولية الناعمة، هي موت الخصوصية وانتهاكها، وذلك بعرض كافة الأسرار والبوح بها على شبكات التواصل الاجتماعي ليحدث التفاعل البينذاتي، أما إذا رفض الفرد القيام بذلك يتم استبعاده واقصاؤه، من هنا يرى باومان أن جاذبية مواقع التواصل الاجتماعي تتركز في ما

يحدث من خلالها من تبادل للمعلومات الخاصة، ونشر الصور الشخصية، حيث يصر الهدف النهائي لمستخدمي هذه المواقع حصد أكبر قد من تسجيلات الاعجاب أو التعليقات أو اتاحة المعلومات للنشر في نطاق واسع يقول باومان يمكن للمستخدمين إعداد ملفاتهم الشخصية، وبيانات الاتصال وغيرها من المعلومات الشخصية، ويمكن للمستخدمين التواصل مع أصدقاء ومع مستخدمين آخرين عبر رسائل خاصة وعامة، إضافة إلى الدردشة الحية. (زيجموت باومان وديفيد ليون: المراقبة السائلة، ، 2018، ص 46).

وهذا يعني؛ أن وسائل التواصل تعمل على الحد من الخصوصية، ناهيك على أنها تدفعنا للإظهار أنفسنا بمظهر جميل وأنيق أمام كل من يشاهدنا ويشاركنا الفضاء الأزرق، وبالتالي فلا مكان لتغييب الأنا، فحسب باومان ما يحكم الأشياء ههنا منطق الحضور والظهور والإفصاح لا منطق الخفاء والتخلي، لتحكم سيطرة المخيال الفيسبوكي المرغوب على وعينا، مما قد يسبب حالة من الإحباط في حال لم نبلغه.

فافشاء البيانات السرية وإخراجها من الأسوار الحصينة، إنما ينم عن رغبة المرء الشديدة في حب الظهور ورفع الستار على المهمل والمتجاهل والمهجور لتكون الأنترنيت وسيلة لعرض قصص النجاح والمعاناة يقول: قصة المعاناة تصبح طريق النجاح والاعتراف. (Zygmunt Bauman: 2013 p.**119**)**ومنه** تصبح هذه القصص محطّ إعجاب فيتم مشاركتها وتداولها على صفحات الفيس بوك وثمة فنحن نشهد اليوم نسخة معدلة من الكوجيطو الديكارتي مثلما يقول: "أنا أظهر للجميع (وأحظى بتسجيل اعجاب ومشاهدة ومتابعة منهم)، إذا فأنا موجود.(زيجمونت باومان وديفيد ليون: المراقبة السائلة، ، ص 130).

وهكذا تغدو شبكات التواصل الاجتماعي، ماهي إلا نوع من الرقابة السائلة أو كما يسميها باومان "نوع من البنابتكون الذاتي على طريقة "افعلها بنفسك" بنابتكون معدل إلى حد كبير إنه مراقبة من مراقب(زيجمونت باومان وديفيد ليون: المراقبة السائلة، ، ص 84). وعليه فهو تسلط غير مرئي وغير مادي للسلطة وحضورها الكثيف داحل نفوس الأفراد، وهذا نوع من الاستبداد الناعم أو كما يسميه باومان وليونداس دونيكيس في كتاب الشر السائل بالشمولية الناعمة وهي تلك التي تمارس فيها السلطة أشد أنواع الرقابة، والتحكم على الأفراد، من دون وعي منهم، بل الأدهى والأمر أنهم يسارعون دوما لمراقبة أنفسهم

وتقديم جميع البيانات الخاصة للسلطة، مقابل الظهور العابر في بؤرة الضوء، وثم تكون إمكانية وجود نزعة شمولية ناعمة بمعنى شكل محكم من تزيف الوعي والخيال الذي يرتدي عباءة الديمقراطية الليبرالية بما يسمح باستبعاد الناس والسيطرة عليهم بما في ذلك النفاذ إلى أنفسهم.(زيجمونت باومان وليونيداس دونسكيس: الشر السائل: ، ص 34).

وهكذا تكون وسائل التواصل الاجتماعي هي أفيون الشعوب الجديدة، كونها تعد نشاط سريري يتداول عليها الفرد المعاصر إلى درجة الإدمان عليها، ولكن بقدر ما توفره من لذة بقدر ما تزيد من تفكيك المجتمعات يقول باومان: وسائل التواصل الاجتماعي مفيدة، فهي توفر المتعة ولكنها فخ.(زيجمونت باومان: زيجمونت باومان أبو الحداثة السائلة. 2017، ص 52).

إلى جانب ما تقوم به هذه المواقع من كشف خبايا الذات الحميمية، فبقدر ما يشعر به الإنسان من متعة بقدر ما ينبثق منه شعور بالقهر، والاستياء عندما يكتشف أنه قاد أسراره إلى ساحة العلن، وهنا يرى ليونداس دونسكيس بأن عمل الشبكات الاجتماعية الجديدة مثل الفيس بوك هو تلاشي شظايا من خصوصيك، فهي توهمك أنك سوف تلقى الاهتمام في عصر الاستهلاك. (Zygmunt Bauman: 2013 ,P 108)

فتآكل الخصوصية وموتها في عالم الأنترنيت،إنّما هو ناتج عن انتشار خدمات التواصل وتوفر أدوات التكنولوجية العالية في التقدم،وكل ذلك يؤدي إلى جر حقوق خصوصيتنا كما يقول باومان: إلى المذابح بإرادتنا أو ربما نعقد الخصوصية باعتبارها ثمنا معقولا للعجائب المعروضة في مقابلها.(زيجمونتباومان وديفيد ليون: المراقبة السائلة، ، ص 43).

5. خاتمة:

على ضوء ما تقدم يمكن القول بأن التقدم العلمي الذي أحرزه الإنسان في مختلف الجوانب الإنسانية قد أفرز لنا إنسان سائل مرن منسلخ من كل المرجعيات والثوابت الصلبة والتي كانت بمثابة القواعد التي يهتدى بها في زمن الحداثة، ففي عصر سائل غابت فيه المعايير واستبدلت بقيم استهلاكية ينتهى وجودها بانتهاء مصلحتها ، وهذا ما أفرز لنا إنسان سائل مرن مكتف بذاته، يبحث عن اشباع مصالحه بأقل تكلفة

وأقل جهد ممكن، وهو ما يسميه عالم الاجتماع الفرسي جيل ليبوفتسكي بالإنسان النرجسي؛ وهو إنسان مرتخي منزوع السلاح.

فاعتماده على الأدوات التكنولوجية الرقمية هي التي دفعته إلى دخول عالم إلكتروني سائل يصنع علاقات ولكنها علاقات مائعة فضفاضة يسهل الدخول والخروج منها، وهي الملائمة لعصر ينزع نحو الصيرورة والسرعة ويحتكم فيه إلى الذكاء الاصطناعي، بحيث تكشف العقلانية الرقمية كل أسراره وتنتهك حصون الذات، فتؤدي إلى موت الخصوصية وفضحها على مواقع التواصل الاجتماعي، وهذا ما نعكس سلبا على سيكولوجية إنسان ما بعد الحداثة، فأدى إلى شيوع مرض الخوف المزمن والقلق من مستقبل غير محدد الملامح.

6. قائمة المراجع:

1- زيجمونت, باومان. وليونيداس, دونسكيس, (2018). الشر السائل: العيش مع اللابديل، تر: حجاج أبوجبر، لبنان, الشبكة العربية للأبحاث والنشر ،بيروت.

2- زيجمونت, باومان, وديفيد, ليون, (2018), المراقبة السائلة، تر: حجاج أبو جبر، لبنان, الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

3- زيجمونت , باومان, (2017), لقاء العدد، اعداد واختبار: عبد الكريم الدخين، تقديم م، أحمد حسن، مجلة أوج، تر: لطفية الدليمي، العدد 03.

4- زيجمونت, باومان وآخرون, (2017)، قوة الكلمات: حوارات وأفكار، تر: لطفية الدليمي، العراق، دار المدى.

5- زيجمونت, باومان, (2016)، الحداثة السائلة، تر: حجاج أبو جبر، لبنان, الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

6- زيجمونت, باومان, (2016)، الحب السائل: عن هشاشة الروابط الإنسانية، تر: حجاج أبو جبر، لبنان, الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

7- زيجمونت, باومان, (2017), زيجمونت باومان أبو الحداثة السائلة: ترجمات خاصة، تر: فريق المجلة كتاب جيل جديد.

8- زيجمونت ,باومان, (2004), العلاقات في زمن الاستهلاك، حياة بلا روابط، تر: فاطمة نصر، مصر ,إصدارات سطور.

9- Zygmunt, Bauman, Collateral Damage ,(2011) ,Social Inequalities in a Global Age,Cambridge: PolityPress.

10- Zygmunt, Bauman,(2007) , Consuming Life,Cambridge: PolityPress.

11- Zygmunt, Bauman, Leanidas Donskis,(2013), Moral Blindneçs The Loss of Sensitivity in LiquidModernity, Cambridge: PolityPress.

12- إدغار, موران, (2010)، نحو سياسة حضارية، تر: أحمد العلمي، لبنان, الدار العربية للعلوم ناشرون.

13- إريك, فروم,(2010), ثورة الأمل نحو تكنولوجيا مؤنسنة، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، مصر, مكتبة دار الحكمة للنشر.

14- ماكس, هوركهيمر, وثيودور, أدرنو,(2006), جدل التنوير: شذرات فلسفية، تر: جورج كتورة، لبنان, دار الكتاب الجديد.

15- يورغن, هابرماس,(2003), العلم والتقنية ك"ايديولوجيا"، تر: حسن صقر، ألمانيا, منشورات الجمل.

16- ستيفان, فيال,(2018), الكينونة والشاشة: كيف يغير الرقمي الإدراك، تر: إدريس كثير،البحرين, هيئة البحرين للثقافة والآثار.

17- جان, بودريار,(2008), المصطنع والاصطناع، تر: جوزيف عبد الله،لبنان, المنظمة العربية للترجمة.

18- بيير, ليفي,(2018), عالمنا الافتراضي ما هو؟ وما علاقته بالواقع؟ تر: رياض الكحال، البحرين, هيئة البحرين للثقافة والآثار.

19- إلزاغودار,(2019), أنا أسيلفي إذن أنا موجود: تحولات الأنا في العصر الافتراضي، تر: سعيد بنكراد، المغرب, المركز الثقافي للكتاب الدار البيضاء.

20- سوزان, غرينفيلد,(2017), تغير العقل، تر: إيهاب عبد الرحيم، الكويت, عالم المعرفة.

21- زيجمونت, باومان,(2004), العلاقات في زمن الاستهلاك، حياة بلا روابط، تر: فاطمة نصر، إصدارات سطور.

22- ميشال, فوكو,(1990), الكلمات والأشياء، تر: مطاع صفدي وأخرون، لبنان, مركز الإنماء القومي.

23- ستيفان, فيال,(2018), الكينونة والشاشة: كيف يغير الرقمي الإدراك، تر: إدريس كثير، البحرين, هيئة البحرين للثقافة والآثار.